# طباع أهل الموصل في النصوص البلدانية
## (القرن ٣ـ٨هـ / ٩ـ١٤م)

**د. محمد نزار الدباغ***

**تاريخ استلام البحث** ٢٠١١/١٢/١٣

**تاريخ قبول النشر** ٢٠١٢/١/٢٥

**ملخص البحث**:

يهدف البحث إلى التعرف على طباع وصفات أهل الموصل كما جاء وصفهم في النصوص البلدانية بين القرنين(٣-٨هـ/٩-١٤) م إذ كان للموقع الجغرافي والمناخ تأثير على مزاج أهل المدينة في اعتدال طباعهم وسجاياهم، كما امتاز أهل الموصل بحسن خلقهم وبشاشة وجوههم ولين كلامهم وطيب فضائلهم، ومن خصائصهم مساعدة الغرباء والزوار والفقراء الوافدين إلى المدينة، فضلا عن وجود بعض العادات والتقاليد والممارسات الدينية والاجتماعية التي ميزت شخصية أهل الموصل.

## Tempers the people of Mosul in the texts intercountry (3-8A.H/9-14A.C) centuries

**Dr. Mohamad Nazar Al Dabbagh**

**Abstract**

The research aims to identify the temperament and qualities of the people of the Mosul, as was described in the texts intercountry centuries (3-8A.H/ 9-14A.C) with the geographic location and climate impact on the mood of the people of the city in the mild natures and instincts ,and excelled the people of Mosul good character and screen their faces and soft words and good virtues ,and characteristics to help strangers and poor people and

* مدرس/ مركز دراسات الموصل/ جامعة الموصل.

visitors coming to the city ,as well as the existence of certain customs and traditions ,religious practices and social personality that characterized the people of Mosul.

**المقدمة**

لا شك أن للموقع الجغرافي لمدينة الموصل بما يحمله من جودة مناخها وطيب ثراها وعذوبة مائها قد ترك تأثيره على أهل المدينة من اعتدال أمزجتهم وخصالهم، وهو ما انعكس على طبيعة الأخلاق الحميدة لأهل الموصل، وحسن التعامل، وطيب العشرة وبخاصة في معاملة الغرباء والمنقطعين والفقراء الوافدين إلى المدينة.

كما أن طبيعة المدينة ومكانتها الدينية قد أعطاها تلك البركة من كونها بلداً للأنبياء والصالحين، وأعطى لأهلها عمق التأمل، وصفاء القلب، وصدق العمل. ونالت المدينة في العصر الأموي (٤١-١٣٢هـ/٦٦١-٧٤٩م) اهتماماً كبيراً بوصفها عاصمة لإقليم الجزيرة[١] وغدت مركزاً حضارياً مهما ووصلت إلى أوج ازدهارها في العصر الاتابكي (٥٢١-٦٣١هـ/١١٥٢-١٢٣٣م)[٢]، مما جعل منها موطناً جاذباً للعلماء والمؤرخين والبلدانيين والأدباء والشعراء والأطباء وغيرهم...، وبهذه الأخلاق ضربوا أروع الأمثلة عبر التاريخ، حتى أصبحت هذه المدينة رمزاً للوفاء والحب والإخلاص.

ومن هنا وقع الاختيار على عنوان البحث، وقبل الخوض في مضامينه لابد لنا من تحليل العنوان لكي تكتمل صورة عرض النصوص وكذلك لتحقيق الربط بين عنوان البحث ومحتواه. فنجد أن كلمة ( طِباعُ) تشمل كل المعاني المتقدمة أعلاه، وحسب معجم المعاني فطباع النُّفوس والأشياء: خصائصها وصفاتها، والطِباع الأربعة عند الأقدمين هي الْحَرَارَةُ وَالبُرُودَةُ وَالرُّطُوبَةُ وَاليُبُوسَةُ[٣] ومن هنا نجد أن طباع الإنسان تكون موروثة أو مكتسبة من البيئة فلأخيرة (بيئة المدينة) تأثير كبير على الإنسان بما تشمله من موقع المدينة، فضلاً عن مناخها وتربتها ومائها.

وبما أن الطباع لصيقة في نفس الإنسان والتي تعكس أفعاله وانطباعاته وسلوكه وتصرفاته وتعاملاته فمن الواجب أن نعرف بها حسب ما حدده علماء النفس قبل الخوض في الطباع من حيث اللغة والاصطلاح. فالطبع (Character) هو مجموعة سمات مطبوعة قابلة للملاحظة بإمكانها تحديد طريقة عادية في التصرف في نمط ما من الأوضاع أو إزاء بعض الأشياء، لدى فرد أو لدى مجموعة أفراد[٤].

وفي اللغة العربية " الطبعُ، والطبيعة، والطِباعُ، ككتاب: السَّجِيَّةُ جُبِلَ عليها الإنسان، أو الطِباع ما رُكِبَ فينا من المطعم والمشرب وغير ذلك من الأخلاق التي لا تُزايلنا، كالطابع. وتَطَبَّعَ بطباعه : تَخَلَّقَ بأخلاقه"[٥]. أما من حيث الاصطلاح فالطِباع هي الصفات الملازمة للإنسان في حياته بما تحمله من أخلاق وسلوك وقيم وعادات وتقاليد ومأثورات[٦]. فمن خلال ما تقدم نجد أن الطِباع هي جميع السمات والصفات والعادات التي تكون مطبوعة في الإنسان أو المكتسبة من محيطه بفعل التقاليد والموروثات التي اكتسبها من مجتمعه والتي تعكس بمجموعها أخلاقه وتصرفاته وسلوكه مع الغير.

أما كلمة (أهل) في اللغة فتعددت معانيها إلا أنها تعني بالمجمل الناس أو السكان لمدينة أو مكان ما، فذكر ابن منظور أن " الأهل أهل الرجل وأهل الدار وأهل الرجل عشيرته وذو قرباه والجمع اهلون وأهالي، وآهال واهلات والأهالي جمع الجمع وأهل البيت سكانه، وأهل الرجل اخص الناس به"[٧]. كما ويعود اصطلاح أهل إلى مختلف المدن والبقاع في كثير من المصادر وعلى مر الحقب التاريخية، مثل أهل هذه البلدة، وأهل الموصل وأهل دمشق...الخ[٨].

أما ما نقصده بالنصوص البلدانية هي ما ورد من كلام عن أهل الموصل في كتب الجغرافيا والرحلات العربية، فضلاً عن بعض النصوص الجغرافية الواردة في كتب الأدب العربي[٩].

**طباع اهل الموصل في النصوص البلدانية(القرن ٣-٨هـ / ٩-١٤م)**

ونحاول في هدا البحث تسليط الضوء على طِباع اهل الموصل كما وردت في النصوص البلدانية، وهي في الحقيقة نصوص قليلة في مادتها، ومكثفة في طرحها من قبل البلدانيين فيما يتعلق بطِباع أهل المدينة إلا أنها نصوص امتازت بدقتها وصدقها من خلال شهادات البلدانيين المسلمين الذين زاروا المدينة أو دونوا عنها نصوصا في كتبهم والتي عكست سلوك وأسلوب وتعامل وأخلاق أهل الموصل.

ولابد لنا في هذا الباب من إعطاء مقدمة تعريفية بأهم المصادر البلدانية وأهميتها لموضوع البحث، فنجد أن في مقدمة هذه الكتب، هو كتابي (البلدان) و (الحيوان) للجاحظ (ت : ٢٥٥ هـ/٨٦٨م) فقدم كلا الكتابين مادة مهمة عن تأثير المناخ على أمزجة أهل الموصل، على أن الاصطخري (ت : ٣٤٦هـ / ٩٥٧م) قد أفاد البحث بمادة مهمة تتعلق بصحة هواء الموصل وأثره على المقيم فيها من خلال كتابه (المسالك والممالك)، أما ابن حوقل (ت:٣٦٧هـ/٩٧٩م) فعرف لنا في كتابه (صورة الأرض) بإقليم الجزيرة وبين حدوده الجغرافية والذي تعد الموصل قاعدته، وزدنا المقدسي (ت : ٣٨١هـ/٩٩١م) في كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) بمادة مهمة أفادت البحث في بيان جودة مناخ الموصل قياساً ببقية مدن الجزيرة، وإذا انتقلنا إلى ابن جبير ( ت ٦١٤هـ/١٢١٧م) فنجد انه قدم مادة مهمة جداً في كتابه (رحلة ابن جبير) تتعلق بطبيعة أخلاق أهل المدينة، فضلا عن المعاملة الحسنة لأهلها للوافدين والزوار والغرباء، زيادة على وصفه لطبيعة عادات أهل المدينة من الناحية الاجتماعية وكذلك حديثه عن الممارسات الدينية من زيارة المساجد والمشاهد الدينية للأنبياء والصالحين، أما ياقوت الحموي ( ت : ٦٢٦هـ/١٢٢٩م) فعرفنا في كتابه (معجم البلدان) بأهمية موقع الموصل بين الأمصار والمدن العظام وأنها مقصد للزوار من المشرق والمغرب، على أن القزويني (ت : ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م) قد أعطى البحث من خلال كتابه (آثار البلاد وأخبار العباد) دفعة مهمة بما قدمه من معلومات تتعلق ببعض العادات والاجتماعية كخروج أهل الموصل للنزه وبعض الشعائر الدينية

كزيارة المشاهد يوم الجمع، فضلا عن تزويد البحث بمادة مهمة تتعلق بـأخلاق أهـل المدينة وطباعهم الحميدة، ونجد أن ابن بطوطة (ت: ٧٧٩هـ/١٣٧٧م) قد قـدم فـي كتابه (رحلة ابن بطوطة) معلومات تتعلق بكرم أهل الموصل للغرباء والزوار.

وقسم البحث إلى أربعة محاور، تناول المحور الأول اثر الموقـع الجغرافـي والمناخ على طباع أهل الموصل، على أن المحور الثاني قد تطرق إلى الكـلام عـن سمات وأخلاق أهل المدينة، وتضمن المحور الثالث بيان الحديث عن معاملـة أهـل الموصل للوافدين إليها من البلدان، أما المحور الرابع فدرس العـادات والممارسـات الدينية والاجتماعية لأهل المدينة.

وتنبع أهمية البحث إلى عدم وجود دراسة قد تطرقت إلى معالجة هذا الجانب بأقسامه الأربعة، وما هو إلا محاولة لبيان شمائل وعادات وطباع أهل هـذه المدينـة التي امتاز أهلها بطبع الوفاء والصدق لمدينتهم وانتمائهم لها وحنيـنهم إليهـا، حتـى بالنسبة للغريب عنها على مر العصور وتوالي الأيام وما أجمل قول الشاعر في هـذا الباب إذ قال:

**أمُّ (الرَّبيعَيْن) لِلأمْجَادِ أوْطـانُ..... كَانتْ وَما فتِئتْ لِلْقلْبِ سُلوَانُ**

**اَلْحَانُ شِعْري لها فَيْضٌ وَأشْجَانُ..... (أمُّ الْعُلا) فِي الدُّنَا رَوْحٌ وَرَيْحَانُ**

**مَنْ عَاشَ فِي (الْمَوْصِلِ الْحَدْبَا) لَهُ شَانُ..... أكْرِمْ بِهَا إنَّهَا لِلْعِزِّ عُنْـــــــــــوَانُ**

**مَا كُنْـتُ أعْـلَمُ أنَّ الْكُلَّ أعْوَانُ..... حَتَّى انْجَلَى لي مِنَ الإيثار بُرْهانُ**[١٠].

## المحـور الأول:اثر الموقـع الجغرافي والمنـاخ على طباع أهـل المـوصل

إن أكثر الخصائص لشمائل أمة وأخلاقهـا وعاداتهـا، إنمـا يرجـع إلـى الخصائص الجغرافية لإقليم هذه الأمة[١١] وينسحب الكلام على المدن أيـضا ومنهـا الموصل،إذ يمثل تاريخها العريق عمقا حضارياً تستقي منه هذه المدينـة ومجتمعهـا المحلي ملامح مهمة لشخصية وطباع أهلها، إذ ذكر النـويري (ت:٧٣٣ هـ /١٣٣٢م)

في معرض حديثه عن طبائع البلاد وأهمية مواقعها ما نصه :"ووجدوا أهل بقاع الدنيا عشرة مواضع: ماسباذان ومهرجانقذق وسورستان والـري والرُّومـان وأذربيجـان، والموصل، وأرمينية وشهرزور والصامغان"[١٢] وهذا يدل على أن المكانة المخصصة للموصل بين هذه الأقاليم والمدن الشهيرة تدل على شهرة أهل الموصل وأنهم مقـصد للقادم والذاهب إلى المدينة، سيما وأنها تتمتع بموقع جغرافي مهم بين البلدان، كان لـه تأثيره الخاص في تشكيل جوانب الحياة المختلفة عموما والاجتماعية والدينيـة منهـا على وجه الخصوص، مما منحها بالتالي شخصية مميزة ظاهرة القسمات، قال ياقوت الحموي (ت:٦٢٦هـ/١٢٢٩م): "كثيراً ما سمعت أن بلاد الدنيا العظام ثلاثة نيـسابور لأنها باب الشرق ودمشق لأنها باب الغرب، والموصل لأن القاصد إلى الجهتين قلمـا لا يمر بها"[١٣].

و اتفق معظم البلدانيين على صحة هواء الموصل وطيبه وجاءت عبـاراتهم من خلال النصوص البلدانية متمثلة بعبـارتين تكـررت كثيـراً وهـي أن الموصـل "صحيحة الهواء"[١٤]. وأشاد المقدسي (ت:٣٨١هـ/٩٩١م)بطيب مناخ الموصل ضمن حديثه عن إقليم الجزيرة فقال ما نـصه "واصـح بلدانـه [بلـدان الجزيـرة] هـواء الموصل"[١٥].

ومن البلدانيين من أشار إلى تأثير الفصول والمناخ والهـواء علـى أمزجـة الناس وطبائعهم وأخلاقهم، وان اخـتلاف الـشعوب ناشـئ عـن اخـتلاف التربـة والإقليم[١٦] وذكر الجاحظ ( ٢٥٥هـ/٨٦٨ م) أن "من أقام بالموصل حولاً ثـم تفقـد عقله وجد فيه فضلاً"[١٧] وأشار أيضا في نص ثان إلى أن"من أقام بالموصل حولاً ثـم تفقد قوته وجد فيه فضلاً"[١٨] ومن خلال مقارنة النصين نجدهما نصاً واحداً فيه بعض الاختلاف في مفردة واحدة وهي كلمة عقلهُ في النص الأول وكلمة قوته فـي الـنص الثاني، فضلا عن أن هذا يدل على تأثير المناخ ايجابياً على من يقيم في الموصل مـن زيادة قوته ورجاحة عقله واعتدال بدنه، وأيد ذلك ياقوت الحموي إذ قال "وكثيـراً مـا

وجدت العلماء يذكرون في كتبهم أن الغريب إذا أقام في بلد الموصل سنة تبين في بدنه فضلاً وقوة...وما نعلم لذلك سبباً إلا صحة هواء الموصل..."[١٩].

وما أجمل قول ابن بسام الشنتريني (٥٤٢هـ/١١٤٧م) الذي أورده في كتابه (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة) نصاً جامعاً لموقع الموصل ومناخها ومائها وتربتها وتأثيرها على المقيم في المدينة قال:"وردت الموصل فوجدت هوائها يعطل سوق بقراط اعتدالاً وطيبة، وماءها يسلي عن مجاج النحل استمراء وعذوبة، وصقعها قد تبغدد رقة ولطفاً، وجوها قد تزندق تنعماً وظرفاً، تكاد تثقله عقود الغانيات، ويخجله تتابع اللحظات، كل شماله نسيم، وكل جنوبه حياً عميم، ورأيت أرضها أطيب الأرض خيماً، وأزينها أديماً(أي:وجه الأرض)، تنسج بالسندس(هو:الحرير الرقيق)الأخضر، وتفتر عن الأقحوان الأحمر"[٢٠]. وكان الشنتريني محقاً بهذا الوصف؛ ليس لأنه شاعر وأديب مرهف الحس[٢١]، بل لأنه بلداني و مؤرخ توخى الحقيقة، وهذا ما أيده ابن الوردي (ت: ٧٤٩ هـ /١٣٤٨م)، وهو من البلدانيين الذين حرصوا على إثبات الحقائق دون زيف قال في كتابه (خريدة العجائب وفريدة الغرائب) الموصل مدينة كبيرة صحية الهواء طيبة الثرى، ولها نهر حسن عميق في عمق ستين ذراعاً. وبساتينها قليلة إلا أن لها ضياعاً ومزارع ورساتيق ممتدة[٢٢].

## المحور الثاني : سمات وأخلاق أهل المدينة

إن المتصفح لبطون المصادر التي كتبت عن الموصل يجد أن الفضائل والأخلاق متأصلة في مرابعهم، ولا أريد أن أجتهد برأيي بقدر ما أجتهد بمطالعاتي التي سيتمخض عنها تسجيل بعض تلك الخصال التي تنم عن فضائل جمة،فاضت بذكرها تلك الكتب، فمن الخصائص المعروفة في سكان الموصل من قبل من وصفوا السكان من البلدانيين هو كونهم حِسانُ الوجوه وبالأخص المقدسي فوصفهم بأنهم "أحسن وجوها"[٢٣]. ونستطيع أن نجد تأييدا لهذا التوصيف عندما نقيس على نص أبن

شداد (ت: ٦٨٤هـ /١٢٨٥م) نقلاً عن الخالديين (أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد ابنا هاشم الخالدي (ت:الأول: ٣٨٠هـ/٩٩٠م) و(ت:الثاني: ٣٩٠هـ/٩٩٩م) في وصف الإقليم الرابع بكونهِ"أصح الأقاليم طباعاً وأتمهم اعتدالاً وأحسنهم وجوهاً وأخلاقاً"[٢٤] ونحن نعلم يقيناً أن الموصل كانت محسوبة على مدن الإقليم الرابع.

وذكر ابن جبير ( ت ٦١٤هـ/١٢١٧م) في وصفه لأخلاق أهل الموصل ما نصه " فلا تلقى منهم إلا ذا وجه طلق وكلمة لينة..."[٢٥]، وهذا يدل على تميز أهل الموصل ببشاشة الوجه والابتسامة والكلام الطيب في مقابلة أهالي المدن والبلدان. وأيد القزويني حديث ابن جبير المتقدم عن أهل الموصل بقوله "وأهلها أهل الخير والمرؤة والطباع اللطيفة"[٢٦] وهذا يؤكد على أن أهل الموصل كانوا من العناصر المتفاعلة مع المجتمع في حبهم للخير وحسن أخلاقهم وطباعهم.

ونجد من خلال زيارة ياقوت الحموي للمدينة وتلمسه لأخلاق أهلها وان المفارق لها لابد أن يشده الحنين إليها والى كرم أهلها، إذ ذكر نقلاً عن السري الرفاء الشاعر الموصلي (٣٦٢هـ/٩٧٧م) يتشوق إليها [الموصل].

**"سقى ربي الموصل الفيحاء من بلد  جود من المزن يحكي جود أهلها**

**أأندب العيش فيها أم أنوح على  أيامها أم أعزي في لياليها**

**أرض يحن إليها من يفارقها  ويحمد العيش فيها من يدانيها"[٢٧]**

ومما تقدم فنجد أن الموصليين كانوا على جانب عظيم من حسن الخلق وطيبة النفس، وبهذه الأخلاق ضرب أهل الموصل أروع الأمثلة عبر التاريخ، حتى أصبحت هذه المدينة رمزاً للوفاء والحب والإخلاص[٢٨].

**المحور الثالث : معاملة أهل الموصل للوافدين إليها من البلدان**

لقد وردت نصوص تحدثت عن فضل أهل الموصل في تعاملاتهم مع الغريب وحسن استقبالهم للزوار والقاصدين للمدينة، ومنهم بلدانيون سجلوا شهاداتهم بحق أهل هذه المدينة، واستخدامهم لأعمال البر والإنفاق بالمال والعين على الفقراء والمحتاجين، ولقد جاءت الأوصاف العامة لسكان الموصل بكونها مدينة. "ترتاح لها الأنفس"[٢٩] وهذا ما صرح به الرحالة عبد الرحمن بن سعيد المغربي (ت:٦١٦هـ/١٢١٩م)،عم البلداني الشهير ابن سعيد المغربي (ت: ٦٨٥هـ/١٢٨٦م) صاحب كتاب الجغرافيا، عند مروره بالموصل، ضمن رحلة طويلة قطعها من الأندلس غرباً إلى بخارى شرقاً[٣٠] ولعل هذا ما جعل الرحالة ابن جبير يشيد بمناقب أهلها والتي تعكس معاملاتهم الطيبة مع الوافدين والزوار إلى المدينة فقد ساق لنا في رحلته حينما زار الموصل سنة (٥٨٠هـ/١١٨٤) ووصف أهل المدينة وطبيعة معاملاتهم بما نصه "وأهل هذه البلدة على طريقة حسنة يستعملون أعمال البر فلا تلقى منهم إلا ذا وجه طلق وكلمة لينة ولهم كرامة للغرباء في جميع معاملاتهم"[٣١]، وهذا يدل على حب أهل المدينة لإكرام الغرباء في جميع المعاملات وعلى كافة الأصعدة. فضلاً عن أن ابن جبير شاهد من أعمال البر حتى قبل وصوله للموصل عندما كان في القافلة العراقية المتوجهة من مكة المكرمة إلى الموصل والمتمثلة في توفير الماء للحجاج في سبيل الله، وتهيئة الزاد والطعام، والكسوة في طريق مكة للمحتاجين والفقراء[٣٢]. وحتى بعد خروج ابن جبير من الموصل فأنه أكد على حب أهل المدينة للغرباء والاحتفاء بهم وإكرامهم بقوله "وأهل هذه البلاد من الموصل لديار بكر وديار ربيعة إلى الشام على هذا السبيل من حب الغرباء وإكرام الفقراء"[٣٣].

وأكد القزويني (ت: ٦٨٠هـ /١٢٨١م) كلام ابن جبير المتقدم عن أهل الموصل بقوله "وأهلها أهل الخير... في المعاشرة والظرافة"[٣٤] وهذا يؤكد على أن

أهل الموصل كانوا من العناصر المتفاعلة مع المجتمع في حبهم للخير ومعاشرتهم للناس.

وسجل لنا ابن جبير شهادته بوصفه بلدانياً زار الموصل وتعامل مع أهلها، فأكد على أن أهل المدينة من أحسن الناس رفقة في طريق السفر، إذ قال "على أن القدر المحمود لم يسبب لنا إلا صحبة الأشبه ومن شكرناه على طول الصحبة وتماديها من مكة شرفها الله إلى الموصل"(٣٥)، وهنا قصد بكلامه أصدقائه من حجاج أهل الموصل الذين رافقوه من مكة إلى الموصل وهذا يؤكد أن مجتمع الموصل كان محباً للخير حسن الطباع.

وفي القرن (٨هـ/١٤م) زار الرحالة ابن بطوطة(ت: ٧٧٩هـ/١٣٧٧م) مدينة الموصل سنة (٧٢٧هـ/١٣١٦م) ولمس بنفسه كرم أميرها له وترحيب سكانها بمن قدم إليها، قال " وأهل الموصل لهم...فضيلة ومحبة في الغريب وإقبال عليه وكان أميرها حين قدومي عليها السيد الشريف الفاضل علاء الدين علي بن شمس الدين محمد الملقب بحيدر وهو من الكرماء الفضلاء أنزلني بداره وأجرى علي الإنفاق مدة مقامي عنده وله الصدقات والإيثار المعروف"(٣٦).

**المحور الرابع : العادات والممارسات الدينية والاجتماعية لأهل المدينة.**

تعد (الموصل) من المدن القليلة في العالم التي تحتضن أرضها عدداً كبيراً من قبور الأنبياء، ما دفع المُؤلفين إلى تسميتها بـ(مدينة الصالحين)، ومن زار هذه المدينة يجد أن أضرحة الأنبياء الصالحين من معالمها المشهورة، وأشهر هؤلاء:النبي جرجيس عليه السلام، والنبي شيت عليه السلام، والنبي دانيال عليه السلام، والنبي يونس عليه السلام، الملقب بـ"صاحب الحوت"(٣٧)، ومن الملاحظ أن أغلب النصوص المتعلقة بالممارسات الدينية في الموصل من خلال كتابات البلدانيين قد تركزت في القرنين (٦-٧هـ/١٢-١٣م)، وكانت الممارسات الدينية التي كان يقوم بها أهل الموصل من إقامة مراسيم الزيارة لهذه الأماكن الدينية، وإقامة النذور مع أعطاء

أولوية لأيام الجمع باعتبارها عيداً للمسلمين فضلاً عن تسجيل بعض البلدانيين لشهاداتهم عن الحياة الدينية في الموصل من خلال ما شاهدوه وتلمسوه من قدسية هذه المدينة، وقد تركز حديث البلدانيين عن نقاط محددة كالحديث عن مشهد النبي جرجيس (عليه السلام)، إذ قال ابن جبير في حقه "وخص الله هذه البلدة [الموصل] بتربة مقدسة فيها مشهد جرجيس وقد بني فيها مسجده وقبره في زاوية من أحد بيوت المسجد عن يمين الداخل إليه وهذا المسجد هو بين الجامع الجديد وباب الجسر يجده المار من باب الجسر عن يساره فتبركنا بزيارة هذا القبر المقدس والوقوف عنده نفعنا الله بذلك"[٣٨] نجد أن أبن جبير كان دقيقاً في رسم صورة موقع المشهد المقدس كيف لا وهو قد زاره ووصفه وصفاً دل على قدرة رجل عارف بمواقع المشاهد المقدسة للمدينة، علماً أنه بقي في الموصل لمدة أربعة أيام[٣٩] فضلاً عن أنه حدد لنا موقع الجامع وموضع القبر المقدس، بين الجامع الجديد، وهو الجامع النوري في الموصل الذي بناه الملك الاتابكي نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي صاحب الشام (٥٤١-٥٦٩هـ/١١٤٦-١١٧٣م) وبين باب الجسر الواقع جنوب شرق المدينة، والذي يعد من أقدم أبواب الموصل[٤٠].

ويبرز عنصر الجانب الديني في النص متمثلاً بمسألة الزيارة لقبر النبي جرجيس (عليه السلام) من قبل ابن جبير، حيث سجل لنا شهادته وزيارته للضريح بوصفه بلدانياً مما يكسب النص قيمة وأهمية كونه قائماً على الملاحظة الشخصية المباشرة، بل وأعطى لنا صورة للتبرك أيضاً عند القبر، عسى أن تكون فيه المنفعة حسب ما رأى هذا البلداني، وهذا عكس لنا الورع والنسك الذي تميز به ابن جبير من إيمانه ببركة الوقوف عند آثار الأنبياء، وهذا ما ترك أثره على شخصيته في أواخر حياته كونه قد أصبح من المتصوفة[٤١].

ومن المظاهر التي عاينها ابن جبير أثناء زيارة للموصل هو مشاهدته لأهل المدينة أثناء استقبالهم لأميرتهم القادمة من الحج وهي أم الأمير الاتابكي عز الدين

مسعود صاحب الموصل إذ قال: فخرج الناس عن بكره ابيهم رجالا ومشاه وخرج النساء كذلك وأكثرهن راكبات"[٤٢] ونجد أنه كان من عادة أهل الموصل استقبال الحجاج المواصلة القادمين من الحج وهي من العادات الاجتماعية المتميزة لدى أهل الموصل، ويوضح النص العدد الكبير من السكان الذين خرجوا لاستقبال والدة السلطان الاتابكي وهذا له دلالة سياسية واجتماعية، تعبر في ظاهرها عن حب أهالي المدينة لسلطانهم وتمسكهم به.

ويتصل الحديث عن المشهد المتصل بتل التوبة فنجد أنه كان مقصداً ومزاراً لأهل الموصل ويعد هذا من الممارسات الدينية الشائعة فقال القزويني "وعلى التل مشهد مقصود يقصده الناس كل ليلة جمعة وينذر له النذور"[٤٣] وذكر ياقوت الحموي ما نصه: "وهناك الآن مشهد مبني محكم بناؤه... وتنذر له النذور"[٤٤] والظاهر من خلال مقارنة النصين أن هذا المشهد كان موضعاً يَأمُهُ أهل الموصل ليلة الجمعة لغرض الزيارة وإقامة النذور وأنه قد نال من الرعاية والاهتمام الكثير فضلاً عن قوة بنائه مما جعله مؤهلاً لتقديم النذور عنده، وهذا يدل على علو مكانته الدينية.

أما على صعيد النصوص ذات الجانب الاجتماعي فنجد أن الأسرة الموصلية حافظت على كيانها الاجتماعي والتنظيمي بفضل مجموعة الأعراف والتقاليد التي غرست التضامن العائلي في أبنائها فضلاً عن تماسكهم الاجتماعي، ومن هذه العادات الاجتماعية التي كان يمارسها أهل الموصل نجد استحمام أهلها بماء العيون من أجل الشفاء من الأمراض، والنزهة، إذ ذكر القزويني ما نصه "دير القيارة بقرب الموصل في الجانب الغربي مشرف على دجلة، تحته عين تفور بماء حار يصب في دجلة ويخرج معه القار... وأهل الموصل يقصدون هذا الموضع للنزه ويستحمون بهذا الماء فأنه يقلع البثور وينفع من أمراض كثيرة"[٤٥]. ويرجح أن خروج أهل الموصل للنزهة كانت من العادات الاجتماعية المألوفة ولاسيما قرب نهر دجلة أو عيون الماء القريبة، وإفادة أهل الموصل من الماء الكبريتي المعالج لبعض الأمراض الجلدية.

ومما يؤيد ما تقدم، حديث ياقوت الحموي عن حمام علي [حمام العليل حاليا] إذ قال عنها "حمام علي باصطلاح أهل الموصل وهي بين الموصل وجهينة قرب عين القار غربي دجلة وهي عين ماؤها حار كبريتي، يقول أهل الموصل أن بها منافع والله أعلم"(٤٦).

**الخاتمة**

لعب الموقع الجغرافي لمدينة الموصل بما يحمله من وقوع المدينة على طريق المواصلات دورا رئيسا في جعلها مركزاً حضارياً مهما بين الأمصار العربية الإسلامية، وكان لمناخ المدينة تأثيراً واضحاً على أمزجة وطباع أهل الموصل من كونهم قد تأصلت فيهم الأخلاق الحميدة والشمائل الحسنة مما جعل المدينة موطناً جاذباً للعلماء سكنا أو زيارة أو عبورا، وليس أدل على ذلك إلا لما تمتع به أهلها من حسن التعامل، وطيب العشرة مع الوافدين والزوار والعابرين والمنقطعين والغرباء والفقراء، كما أن طبيعة المدينة ومكانتها الدينية بكونها مدينة الأنبياء والصالحين قد أعطاها تلك البركة وبما ترسخ في أهلها من عادات جُبلت في شخصية أهل الموصل من الزيارة وإقامة النذور في المناسبات الدينية وأيام الجمعة لاعتقادات راسخة في سجيتهم بأن هذه المدينة مدينة يونس (عليه السلام) لها قدسية دينية قد أعطت (للموصلي) عمق التأمل، وصفاء القلب، وصدق العمل قولا وفعلا وبهذه الطباع والأخلاق والسمات والسجايا والصفات والشمائل والمناقب والفضائل ضربوا أروع الأمثلة عبر التاريخ بما نجده مسطرا في كتب البلدانيين وما أجمل قول الأصمعي ( ت : ٢١٦هـ/٨٣١م) الأديب والبلداني كأني به يفتخر بانتسابه إلى (الموصل)، بل يعزو ألمعيته إليها، فيقول :

**أَنَا الأَدِيْبُ الأَلْمَعِـي..... مِنْ حَيِّ أَرْضِ المُوْصِـــلِ.**

## الهوامش:

(١) تقع الجزيرة بين نهري دجلة والفرات في قسميها الشمالي وتشمل ثلاثة أصقاع، ديار ربيعة وديار مضر وديار بكر، وأشهر مدنها الموصل. ينظر : أبي القاسم بن محمد علي الموصلي النصيبي الشهير بابن حوقل، كتاب صورة الأرض، (القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، د. ت)، ص١٩٠-١٩١.

(٢) الاتابكي: كلمة مشتقة من أتابك وهو لفظ تركي مركب من مقطعين، "أتا"، ومعناها الأب، و"بك"، وتعني أمير فهي بذلك تعني الوالد الأمير، وكان هذا اللقب يطلق على من

يتولى تربية، أولاد السلاطين السلاجقة. ينظر : رشيد الجميلي، دولة الاتابكة في الموصل بعد عماد الدين زنكي (٥١٥-٦٣١هـ/١١٤٦-١٢٣٣م)، (ط١، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٧٠)، ص٢٧.

(٣) راجع : معجم المعاني، على الموقع الالكتروني : http://www.almaany.com

(٤) ميشيل غودفريد، مصطلحات في علم النفس والطب النفسي، ترجمة: حبيب نصر الله نصر الله، (ط ١، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ٢٠١٠ )، ص ٩٠.

(٥) مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي، القاموس المحيط، تحقيق : أبو الوفا الهوريني، ( ط ٣، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩)، ص ٧٦٢؛ انطون.ب. قيقاتو، معجم تعدي الأفعال، ( بيروت، دار المراد،٢٠١٠)، ص ٢٦٤.

(٦) مقابلة شخصية أجراها الباحث مع الدكتور علي احمد محمد العبيدي، تدريسي في مركز دراسات الموصل، بتاريخ ٢٠١١/٩/٢٥.

(٧) جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، ( القاهرة، مطبعة كوستاتسوماس، د.ت )، ج٣، ص ٢٨-٣٢ ؛ محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، ( بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٨١ )، ص ٣١.

(٨) هدى ياسين يوسف الدباغ، الإسهام الحضاري لأهل الموصل والجزيرة في بلاد الشام إبان العصرين الزنكي والأيوبي ( ٥٢١-٦٥٨هـ/١٢١٧-١٢٥٨م)، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية التربية، جامعة الموصل، ٢٠١١، ص ٤٥.

(٩) حسين علي الطحطوح، الهند في التراث البلداني العربي خلال القرنين (٣ - ٤ هـ /٩-١٠م)، مجلة آداب الرافدين، (الموصل، ع ٢٧، ١٩٩٥)، ص ٢٦٥.

(١٠) هاشم صالح مناع، الموصل ريحانة الدنيا، دراسة منشورة في ملتقى أبناء الموصل على الموقع الالكتروني :

http://www.mosul-network.org/index.php?do=article&id=19122 ؛

ذنون يونس الطائي، في الوطنية الموصلية، ( ط ١، الموصل، دار ابن الأثير للطباعة والنشر / جامعة الموصل، ٢٠٠٨)، ص ٥١.

(١١) ادوارد وليم لين، المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم ( في القرن التاسع عشر )، نقله للعربية، عدلي طاهر نور، ( ط ١، القاهرة، مطبعة الرسالة، ١٩٥٠)، ص ٩.

(١٢) شهاب الدين احمد بن احمد النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، (القاهرة، مط كوستاتوماس وشركاه، د.ت)، ج ١، ص ٢٩٦؛ يوسف جرجيس الطوني، الثقافة التاريخية وبناء الشخصية مع الإشارة إلى الخصوصية المحلية، بحث ضمن ندوة (السمات العامة للشخصية الموصلية )، (الموصل، مركز دراسات الموصل، ٢٠٠٤)، ص ٧.

(١٣) شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت الحموي، معجم البلدان، (بيروت، دار صادر، د.ت)، مج ٥، ص٢٢٣؛ إبراهيم خليل العلاف، الموصل : رؤية تاريخية في شخصيتها العربية الإسلامية، نشرة إضاءات موصلية، العدد ٩، مركز دراسات الموصل (الموصل،، ٢٠٠٦)، ص ١١.

(١٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان ؛ مج ٥، ص ٢٢٤ ؛ إبراهيم بن محمد الفارسي الشهير بالاصطخري، كتاب الأقاليم، حرره: ر. ج. هـ. مولير J. H. Moeller– تحت عنوان: Liber Climatum (غوته، ١٨٣٩)، و ٤٠ ؛ الاصطخري، المسالك والممالك، تحقيق : محمد جابر عبد العال الحيني، مراجعة: محمد شفيق غربال، (القاهرة، مطبعة دار القلم، ١٩٦١)، ص ٥٣ ؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٩٤ سراج الدين بن عمر بن الوردي، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، تصحيح وتعليق: محمود فاخوري، (بيروت، دار الشرق العربي، ١٩٩١)، ص ٥٤.

(١٥) شمس الدين محمد بن احمد المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، (ط٢، ليدن، مطبعة بريل، ١٩٠٦)، ص ١٤٢.

(١٦) أبقراط، كتاب الاهوية والمياه والبلدان، استخرج إلى اللغة العربية: شبلي شميل، (القاهرة، مط المقتطف، ١٨٨٥)، ص ٦-٧.

(١٧) عمرو بن الجاحظ، كتاب البلدان، نشرهُ مع مقدمة وتحقيق: صالح احمد العلي، (بغداد، مط الحكومة، ١٩٧٠)، ص ٤٥٧.

(١٨) عمرو بن بحر الجاحظ، كتاب الحيوان، باب: بعض طبائع البلدان، تحقيق: عبد السلام هارون (مصر، مطبعة، البابي الحلبي، ١٩٦٦)، ج ٤، ص١٣٥ ؛ عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي،، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (ط١،صيدا ــ بيروت، الدار النموذجية ــ المكتبة المصرية، ٢٠٠٣)، الباب ٤٦:فيما يضاف إلى البلدان، ص ٤٤٤،نقلاً عن: الجاحظ، خصائص البلدان ؛ زكريا بن محمد القزويني، مفيد العلوم ومبيد الهموم، الباب الرابع: كتاب عجائب البلدان إذ ذكر في حديثه عن خاصية البلدان ما نصه " ومن أقام في الموصل سنة تزداد قوته " ص ٤١٣. ولا نجد اختلافا في نصه هذا عما ذكره الجاحظ في كتبه المتقدمة سوى كلمة سنة بدل حول. ويبدو أن ما ذكره الزمخشري جاء منقولا من الجاحظ مع بعض التغير. قال الزمخشري " من أقام بالموصل حولا وجد في قوته فضلا ". ينظر: محمود بن عمر، ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، تحقيق: سليم النعيمي، (بغداد، مط العاني، ١٩٧٦)، ج١، ص٣١٢ ؛ أبو حامد محمد بن عبد الرحيم بن سليمان الغرناطي، تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، تحقيق: إسماعيل العربي، (ط١، الدار البيضاء، منشورات دار الآفاق الجديدة، ١٩٩٣)، ص ٧٦.

(١٩) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٥، ص ٢٢٤؛ وتذكر إحدى الدراسات الحديثة في مجال علم الاجتماع أن للمناخ تأثير في مزاج الناس وأخلاقهم وبالتالي في القيم المثالية والنماذج العامة للسلوك وهو ما ذكره البلدانيون وأيدته الدراسات الحديثة فيما يتعلق بمدينة الموصل. ينظر : خليل محمد الخالدي، خصائص المجتمع الموصلي ( دراسة اجتماعية ميدانية )، ( الموصل، مركز دراسات الموصل، ٢٠٠٦)، ص ٢١.

(٢٠) علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس، (ط١، بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٩)، ج ٤، ٢٥٢.

(٢١) مناع، الموصل ريحانة الدنيا، على الموقع الالكتروني :

http://www.mosul-network.org/index.php?do=article&id=19122

(٢٢) ابن الوردي، خريدة العجائب، ص ٥٤.

(٢٣) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٣٦.

(٢٤) ينظر: الاعلاق الخطيرة، ج٢، ق٢، ص١١، نقلاً عن الخالديين، أخبار الموصل.

(٢٥) محمد بن احمد ابن جبير، رحلة أبي الحسين محمد بن احمد بن جبير الكناني البلنسي، نشر: دي غويه، ( ط٢، ليدن، مطبعة بريل، ١٩٠٧)، ص ١٨٢.

(٢٦) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، (بيروت، دار صادر – دار بيروت، ١٩٦٠)، ص ٤٦٢.

(٢٧) ينظر: على الترتيب، السري الرفاء، ديوان السري الرفاء، تحقيق: حبيب حسين الحسني، (بغداد، دار الرشيد، ١٩٨١) ج٢، ص ٧٥٦-٧٥٧؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج٥، ص٢٢٤.

(٢٨) مناع، الموصليون رمز المجد والإيثار، دراسة منشورة في ملتقى أبناء الموصل على الموقع الالكتروني :

http://www.mosul-network.org/index.php?do=article&id=19177 ؛

إيناس محمد عزيز المشهداني، خصائص المجتمع الموصلي من خلال آراء الوافدين المقيمين فيه – دراسة ميدانية في مدينة الموصل –، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم الاجتماع، كلية الآداب، جامعة الموصل، ٢٠٠٦، ص ٢٦.

(٢٩) احمد بن محمد المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ضبط وتعليق: محمد محي الدين عبد الحميد، مقدمة الباب الخامس من الكتاب- في التعريف ببعض من رحل من الأندلسيين إلى بلاد المشرق –،(بيروت، دار الكتاب العربي، د.ت) مج٣، ص١٣٢-١٣٤.

(٣٠) المقري، نفخ الطيب، مج٣، ص١٣٢-١٣٤.

(٣١) ابن جبير، الرحلة، ص ٢٣٧؛ خليل محمد الخالدي، التنظيم الاجتماعي والشخصية الموصلية، بحث ضمن ندوة ( السمات العامة للشخصية الموصلية )، ( الموصل، مركز دراسات الموصل، ٢٠٠٤)، ص ٢٥.

(٣٢) ابن جبير، الرحلة، ص ١٨٢-١٨٦.

(٣٣) ينظر: المصدر نفسه، ص٢٤٥؛ الخالدي، التنظيم الاجتماعي والشخصية الموصلية، ص ٢٥.

(٣٤) ينظر: آثار البلاد، ص٤٦٢.

(٣٥) ينظر: رحلة أبن جبير، ص٢٣٨.

(٣٦) محمد بن عبدالله اللواتي الطنجي الشهير بأبن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، مصدرة بترجمة ذاتية لابن بطوطة بقلم : كرم البستاني، ( بيروت، دار صادر، ١٩٩٢)، ص ٢٣٦.

(٣٧) مناع، الموصل ريحانة الدنيا، على الموقع الالكتروني :

http://www.mosul-network.org/index.php?do=article&id=19122

(٣٨) الرحلة، ص٢٣٦.

(٣٩) ينظر : المصدر نفسه، ص ٢٣٧.

(٤٠) سعيد الديوه جي، بحث في تراث الموصل، (الموصل، مط دار الكتب- جامعة الموصل، ١٩٨٢)، ص٢٢، ١٦٧.

(٤١) محمد نزار حميد الدباغ، المشرق العربي الإسلامي من خلال رحلة ابن جبير، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة الموصل، ٢٠٠١، ص٤٠-٤١.

(٤٢) ابن جبير، الرحلة، ص ٢٣٧.

(٤٣) آثار البلاد، ص٤٦١.

(٤٤) معجم البلدان، مج٢، ص٤١.

(٤٥) ينظر:آثار البلاد، ص٣٧١؛ الطائي، في الوطنية الموصلية، ص ٥٣ ؛ موفق ويسي محمود، الشخصية الموصلية (مقاربة سوسيوانثربولوجية)،بحث ضمن ندوة (السمات العامة للشخصية الموصلية)، (الموصل، مركز دراسات الموصل، ٢٠٠٤)، ص ٥؛ مادة ( حمام العليل ) في ويكابيديا ( الموسوعة الحرة ) على موقع المكتبة الافتراضية العلمية العراقية على الرابط : www.ivsl.org

(٤٦) معجم البلدان، مج٢، ص١٩٤، ٢٢٩.